بحث تاريخي اجتماعي

تأثير انتشار الاوبئة في نفسية المجتمع

تعمل الكوارث الاجتماعية في نفسية الجماعات ما تعمله في نفسية الافراد . فهي تستثير اهواء الناس وتستفزها من مكامنها ، وتظهر ما بطن من اخلاقهم وشعورهم بجلاء ووضوح ؛ فيصبح بعضهم مثالاً يحتذى في الاخلاص أو الوطنية ، ويخضع معظمهم للأهواء السيئة والصفات الرديئة . وهذه الصفات تبقى في الاوقات العادية خافية في مستقر النفس البشرية تخفيها عوامل التربية والوسط وروح المجاملة والمعشرة

ففي وقت انتشار الطاعون على الخصوص ، سجّل المؤرخون في كتاباتهم التغيرات التي تطرأ على النفس البشرية ، والتي هي نتيجة طبيعية لاطلاق الافراد عنان اهوائهم امام الخطر الداهم . وهذه التغيرات كانت تعظم أو تقلّ وفقاً لكثرة انتشار الوباء أو قلته. فعندما يكون الوباء في اول انتشاره وضحاياه قلائل ، لا يهتم معظم السكان بالحالة . ولا يتلقون لها . بل ينكر حتى الاطباء انفسهم خطورتها ، ويتعامون عنه ويتحاشون ذكره أو الاشارة اليه . وعندما يشتد المرض نوعاً ما وينذر بالشر ، يصرُّ بعض المكابرين : على انه لم يصبح وباء . لانه لو كان كذلك ، لاهلك كل السكان ولم يبق على احد منهم . وهذا النحو من التفكير، فعلاً أبان انتشار الطاعون في مرسيليا عام ١٧٢٠م. حيث كانوا يعللون المرض بمختلف العلل الغريبة وينسبونه الى قوم مخصوصين يدعونهم (ناشري الطاعون) Les sémeurs de peste. ومثال ذلك ما نقله الينا المؤرخ توسيديدس Thucydide ان الاعتقاد الذي كان سائداً هو ان (اعداء الشعب) كانوا يسممون الآبار التي يستقي منها الناس

ومما نقله المؤرخ ديون كاسيوس Deon Cassins الذي عاش في عهد الامبراطور (كومود) ان (ناشري الطاعون) كانوا يغرزون في اجسام المارة في الطرق العامة ابراً مسمومة ، تنشأ عنها الاصابة بالداء فالوفاة السريعة . وفي القرون الوسطى كان اليهود ومرضى الجذام Lépreux يتهمون علانية بتسميم الآبار، وكانوا لذلك يحرقون احياء. ومن ذلك انه لما انتشر الطاعون عام ١٣٢١ لم يستثن من هؤلاء سوى النساء الحوامل و(الطفالين) ومع ذلك كان يزج بهن في السجون وتوشم اجسادهن بالحديد المحمي . وظل التخوف من (ناشري الطاعون) على اشده عدة قرون، وكانت ضحايا هذا التخوف عظيمة من اليهود ومرضى الجذام الذين كان ينسب اليهم ضمناً تركهم في منحنيات الشوارع لفافات من الورق بها صديد يحمل جراثيم الوباء وفي القرن السابع عشر تحوّل الاضطهاد عن هؤلاء الى الاجانب النازحين الى البلاد بدعوى

نشر المرض عمداً ، فكان ينتك بهم ويمثّل بأجسامهم شر تمثيل . ووصف « مزوني » Manzoni في قصته المسماة (Les fiancés) طرفاً من ذلك . ومما ذكره ان انتشار الطاعون بمدينة ميلان عام ١٦٣٠م ان الخوف من الوباء بلغ من الاهالي حداً جنونياً حتى انهم كانوا يشكّون في ذوي قرباهم لان الاعتقاد كان سائداً ان بعضهم يريد الفتك بالبعض الآخر ليستولي على ثروته . فكانوا يهجرون بيوتهم هائمين على وجوههم وأصبح هذا من اقوى الاسباب في انحلال الاسرة في ذلك العهد . ولم يسلم الاطباء انفسهم من شكّ المرضى فيهم فكانوا اذا دعوا لعيادة مريض يهانون واحياناً يرجمون بالحجارة . وكان من المعتاد ايضاً اذا حل الوباء ببلد أن يطلب القوم من الآلهة ان يجمع الداء كله في شخص فيُعدّ لذلك في احتفال كبير ثم ينتك به تطهيراً للبلد من الداء على زعمهم

اما رجال الدين فكانوا يرون في الطاعون مظهراً لغضب السماء فلكي يخففوا من وقعه كانوا يؤلفون مواكب دينية يسيرون فيها عراة الاقدام ، فكان ذلك يزيد في انتشار الداء بشكل ملموس عقب هذه المواكب مباشرة !! ومن هوس بعض الطوائف في ذلك الزمن سيرهم جموعاً في الشوارع العامة وهم يلطمون خدودهم ويضربون اجسادهم بسياط جلدية ، فتسيل منها الدماء غزيرة . وكان ذلك على الخصوص ابان انتشار الطاعون الاسود في القرن الرابع عشر

وتسبب عن كثرة الموتى ، بساطة في اجراءات الدفن . ومما قاله ثوسيديوس Thucydide في هذا ان الناس كانوا لا يعنون بدفن موتاهم . فكانت الجثث تحرق اختصاراً للاجراءات . وكثيراً ما كان الناس يهربون من البيوت تاركين الجثث فيها حتى تنتن وتتصاعد منها روائح كريهة . وندر وجود من يحملون الموتى ، فعهد اجراءات الدفن حينئذٍ الى طبقة من طغام الناس يدخلون البيوت التي عليها شارة الموت لنهبها وسلبها واغتصاب من وجد فيها من النساء

وكان الناس لا يقدمون على السير في الطرقات الا لقضاء حاجة ماسة وكان يغلب سيرهم وسط الطريق ليتحاشوا ملامسة احد ، حاملين معهم عصاة طويلة يسمونها عصى القديس روش Saint Roch لابعاد الكلاب وغيرها من طريقهم . وكان القوم ينشدون في مختلف اللذات ما ينسيهم الموت الذي يهدّدهم ووصف Thucydide تلك الحالة النفسية قال : —

(وافرط كل فرد في طلب اللذة بدون حساب وهمه الوحيد التمتع بها في كل فرصة وباي ثمن حيث قد أثر في اعصابهم رؤيتهم الاغنياء بينهم يموتون فجأة تاركين الثروات الطائلة . والفقراء المعوزون وقد اصابوا الغنى الفاحش بدون مجهود وعن طريق الميراث كانوا ينظرون الى الثروة والمتاع ومختلف اللذات كشيء لن يتسنى لهم التمتع به طويلاً لان الموت يتهددهم بين دقيقة واخرى فسعوا الى اللذات الجسمانية سعياً ليتمتعوا باوفر قسط منها . وقلما فكر واحد منهم في السعي لتحقيق غاية شريفة لانهُ لم يكن يدري ان كان الاجل سيمتد به الى وقت يتمتع فيه بنتائج مسعاه . واصبح الجمع بين اللذة والمصلحة ديدن الجميع . فلا يأبهون

لغضب الآلهة ولا لصرامة القوانين. ومنذ ان رأوا الموت يحصدهم حصداً انعدمت في قلوبهم صفة الرحمة والمؤاساة والاخلاق الفاضلة على انهم كانوا يشكون في امتداد ايامهم الى ان تقتص السلطات منهم لما اقترفوا من ذنوب واثموا من آثام . وبات كل فرد على بينة من مصيره القريب فكان في شاغل عن كل شيء منصرفاً الى قضاء شهواته حيث كانت ومهما كلفت)

وفي عصر النهضة أملت هذه النفسية نفسها — وهي التي كانت سائدة وقتئذ — على بعض الكتاب قصص بوكاشو Boccacio المشهورة في التاريخ وما يماثلها من القصص المبتذلة لما حوته من المناظر الشائنة التي يندى لها جبين الادب حياء

ومما قاله المؤرخان دورنتي وجفارلي Duranty & Gaffarel يصف تلك الحالة النفسية التي طغت على عقول سكان مرسليا في طاعون سنة ١٧٢٠ ما يأتي : —

(استولى الرعب وحب الاستمتاع السريع على الاهالي من كلا الجنسين مما دفعهم الى اتمام عقد الزواج بكل معداته في مدى اربع وعشرين ساعة على الاكثر . فكانت الارملة التي لم تمض على وفاة قرينها ايام قلائل ، تعقد زواجاً ثانياً ، ولما تجف دموعها بعد . وكثيراً ما كان ينزع الموت من احضانها زوجها الثاني ، فلا تحجم عن اختيار شريك آخر لحياتها . وكانت هذه الظاهرة الاباحية اكثر وضوحاً وابلغ اثراً في الطبقة الدنية من السكان ، ممن آلت اليهم الثروة عفواً بطريق الميراث بعد فقر مدقع . ونسي سكان مرسليا كل شيء في العالم وذهلوا عن كل شيء الا عن الزواج والافراط في اللهو والتمادي في الشراب بشكل منقطع النظير . واستمر التزاوج على هذا النحو — بدون تمازج بين الطرفين — حتى انه في مدى خمس سنوات من تاريخ الطاعون ، بلغ عدد المواليد حداً اصبح تعداد السكان بعده معادلاً لما كان عليه قبل انتشار الطاعون . وأصبحت مرسليا ، في فترة قصيرة ، مدينة للجمال والفن والاستمتاع ، وبلغت مبانيها مبلغاً عظيماً من الاتساع وتفنن سكانها في ارتداء الملابس الفاخرة واقتناء الكماليات ، فكنت ترى المحال التجارية غاصة بهم ينفقون فيها عن سعة ، وكنت تشهد المراقص تقام في المنازل والطرق العامة والابتهاج شاملاً عاماً ، كأن الناس قد نسوا ما حل بهم من النكبات وعوامل الفناء . ويمكن القول اجمالاً أن هذه النفسية هي بعينها التي شوهدت عقب انتشار الكوليرا في مرسليا عام ١٨٨٥ م وافرق الناس بعدها في اللهو والمجون

وهذه الظاهرة تغلب عند حلول الكوارث الاجتماعية الخطيرة ، فأن حرب سنة ١٩١٤ أوجدت في نفوس الملايين من الجنود تعطشاً غريباً لجميع وسائل الاستمتاع . واستهتاراً فاحشاً بالشرائع والقوانين حتى بعد وقف القتال . كما حصل بعد حكم الارهاب في فرنسا وقيام حكومة الادارة على انقاض الاشلاء والدماء

ابراهيم مراد دياك
ليسانس في الحقوق من جامعة باريس